منهج الطبري وابن كثير في التفسير

.دراسة تأصيلية تطبيقية مقارنة .

الأستاذة: سامية دردوري

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية

مقدمة:

الحمد في الذي دعا الناس إلى الإيمان به، ونصب لهم آيات وحدانيته، ودلائل ألوهيته، وعلامات ربوبيته، بما منحهم من نظر دقيق، ثاقب، فكر عميق ناقد. وأرسل رسوله الأمين: الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وبين للناس، ما أنزل إليه، من وحي، ونصح الأمة، دعاها إلى التفقه في الدين، والالتزام، بشريعة رب العالمين.

وبعد:

— إن التفسير من أهم العلوم الشرعية، لأن محوره الأساسي، القرآن، وهو المصدر الأول من مصادر الشريعة الإسلامية، الذي لا يدخله الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد اهتم به المسلمون منذ الصدر الأول.

وقد ارتأيت أن أوضح منهج الطبري، وابن كثير، والفرق بينهما، فكلاهما ينتمي إلى مدرسة التفسير الأثرية فاستعنت بتفسير كل من الطبري وابن كثير، كتاب "التفسير والمفسرون" وكتاب "مناهج في التفسير" الذي بين منهج الطبري بإسهاب. وقد قسمت بحثي هذا إلى مقدمة، ومدخل تناولت فيه ترجمة الطبري والتعريف بكتابه وترجمة ابن كثير والتعريف بكتابه أيضا، ثم دخلت في الموضوع، ببيان منهجي الطبري وابن كثير في التفسير، ثم وضعت مقارنة بينهما، وبعد ذلك اخترت نموذجا لبيان طريقة تفسيرهما: وعقدت مقارنة بين الطريقتين ثم ختمت البحث بخاتمة تضمنت ملاحظة هامة.

مدخل إلى البحث: ترجمة الطبري: هو الإمام أبو جعفر، محمد بن جرير ابن يزيد ابن كثير ابن غالب الطبري، الإمام الجليل، المجتهد المطلق، ولد بآمل بطبرستان سنة (224هـ) أربع عشرين ومائتين للهجرة1، ورحل من بلده لطلب العلم، وهو ابن اثنتي عشر سنة، عام ست ثلاثين مائتين للهجرة2، كانت جيته الأولى في الري، ثم بغداد، ثم واسط، فالكوفة، ثم عاد إلى بغداد، ثم قصد الشام، بعدها رحل إلى مصر سنة ثلاثة وخمسين ومائتين 253 هـ ثم رجع إلى الشام، وبعدها إلى مصر سنة ست وخمسين ومائتين 256 هـ. ثم انتقل إلى بغداد، وبقي فيها إلى أن توفي سنة 310 هـ عشر ثلاثة مائة للهجرة.

وأثناء طوافه في هذه الأقاليم سمع الحديث، ودرس القرآن، والتاريخ، ثم تلقى فقه الشافعية.[3]

قال السيوطي: "كان أولا شافعيا، ثم انفرد بمذهب مستقل، وأقاويل واختيارات له أتباع مقلدون، ولو في الأصول الفروع كتب كثيرة"[4]. ولم يستطع هذا المذهب الذي يقال لأتباعه الجريرية، البقاء إلى يومنا هذا.[5]

مرتبته العلمية: قال الخطيب البغدادي: "كان حافظا لكتاب الله، بصيرا بالقرآن، عارفا بالمعاني، فقيها في أحكام القرآن، عالما بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفا بأقوال الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من المخالفين في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفا بأيام الناس أخبارهم"6.

شيوخه: سمع الحديث من محمد بن حميد الرازي، والمثنى بن إبراهيم محمد بن العلاء الهمذاني، غيرهم ودرس القراءات، ن أحمد بن يوسف الثعلبي، سليمان الطلحي. التريخ على يد محمد بن أحمد الدلالي محمد بن إسحاق بن خزيمة.

وتلقى فقه الشافعية عن الحسين ابن محمد الصباح الزعفراني، وبني سعيد الإصطخري، الربيع ابن سليمان المرادي غيرهم[7].

كتبه: كتاب "القراءات التنزيل" وكتاب في "عبارة الرؤيا"، وكتاب "تهذيب الآثار"، وكتاب "أخبار شرئع الإسلام"، "وأداب القضاة"، "اختلاف العلماء"، وكتاب "تاريخ الأمم الملوك"، "وتاريخ الرجال من الصحابة والتابعين"، "البصير في معالم الدين"، "صريح السنة"، "جامع البيان عن تأويل القرآن"، ولم يبقى من هذه الكتب إلا كتابه في التاريخ والأخر في التفسير[8].

تلاميذه: القاضي أبو بكر أحمد بن كامل خلف، عبد العزيز محمد الطبري، أبو إسحاق ابن إبراهيم، ابن حبيب الطبري.

التعريف بكتب التفسير للطبري:

مؤلف الطبري في التفسير من المؤلفات الثمينة في المكتبة الإسلامية فاطبري من مقدمة تفسيره يوضح الخطة التي بموجبها يتعرض للتفسير القرآني، فتفسيره صورة واضحة لمذاهب التفسير، منذ عصر الرسالة المحمدية حتى مطلع القرن الرابع للهجرة.

كيف قسم كتابه:

بدأ الطبري كتابه بمقدمة طويلة، بها عدة فصول، فالفصل الاول يناقش فيه، عربية القرآن، وما يتميز به أسلب القرآن من خصائص، ثم ينتقل إلى إثبات: أن القرآن عربي اللفظة المفردة في فصل ثاني، قم فصلا أخر، بعنوان "القول في اللغة التي نزل بها القرآن من لغات العرب"، ثم ينتهي إلى بيان خطته في التفسير، في فصل سمي "القل في الوجوه التي من قبلها يوصل إلى معرفة تأويل القرآن"، ثم يصر الطبري، التيارات الفكرية التي سادت عصره، عصر من قبله، التي تناولت تفسير النص القرآني وفق الهوى، ويذكر فصلا، "فيه ما اثر من روايات، تنهى عن التفسير بالرأي. ثم ذكر فصلا"، بعنوان "ذكر بعض الأخبار التي رويت في لحض

على العلم بتفسير القرآن من كان يفسره من الصحابة"، وهذا في ماجهة النزعة المخرجة في التفسير، ثم يورد الطبري فصلا بعنوان "ذكر بعض الأخبار التي خلط في تأويلها منكر القول في تأويل القرآن".

وعنون فصلا آخر "ذكر أن الاخبار عن السلف في من كان من قدماء المفسرين محمودا علمه بالتفسير ومن كان منهم مذموما علمه بذلك".

قال السيوطي: "كتاب الطبري في التفسير أول التفاسير، وأعظمها. فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، وللإعراب، والإستنباط. فهو يفوق بذلك تفاسير الأقدمين، وأعده رأس المفسرين على الإطلاق، جمع في تفسيره بين الرواية والدراية، فلم يشركه في ذلك أحد قبله، ولا بعده"[9].

وقال أبو حامد الأسفراييني: "لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيرا".

وقال النووي: "أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري".

قال بن تيمية: " وأما التفاسير التي في ايدي الناس فأصحها تفسير ابن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف، بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين كمقاتل ابن بكر الكلبي[10]".

ترجمة ابن كثير:

مولده ونشأته: هو إسماعيل ابن عمر ابن كثير، بن ضو بن درع القرشي، البصروي، الدمشقي، عماد الدين أبو الفداء، مؤرخ، مفسر، محدد، من فقهاء الشافعي، ولد سنة 701هـ وقدم مع أخيه إلى دمشق، سنة 706هـ، بعد مت أبيه، وبها نشأ وتعلم11. كان قد كف بصره في آخر عمره. وتوفي في شعبان سنة 724 هـ، ودفن في مقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية[12].

شيوخه: سمع من ابن الشحنة، والامدي، ابن عساكر، كما أخذ عن ابن تيمية، وكان متأثرا بهذا الأخير كثيرا.13

مكانته العلمية: قال عنه ابن حجر: " واشتغل بالحديث مطالعة في متونه، ورجاله، وجمع التفسير، وشرع في كتاب كبير في لا حكم، ثم يكمل، وجمع التاريخ، الذي سماه البداية والنهاية... وكان كثير الاستحضار[14] وقال الذهبي عنه في المعجم المختص:" الإمام المفتي، المحدث، البارع، فقيه، متقطن، محدث متقن..."[15] قل فيه أحد تلاميذه بن حبي: "أحفظ من أدركنه لمتون الحديث، وأعرفهم بجرحه ورجالها، صحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك..."[16]

يقول عنه الداودي: " الحافظ أبو الفداء اسماعيل، بن عمر، ابن كثير القرشي، لبصروي، الدمشقي الشافعي، أقبل على علم الحديث، وأخذ الكثير عن ابن تيمية وسمع الكثير. وقبل على حفظ المتون، ومعرفة الأسانيد، والعلل، والرجال، والتريخ، حتى برع في ذلك وهو شاب[17]".

التعريف بكتاب ابن كثير: يعد تفسير بن كثير من أشهر ما دون في التفسير بالمأثور، عنتى فيه مؤلفه بلرواية عن مفسري السلف، ففسر فيه كلام الله تعالى بالأحاديث والآثار، مسندة إلى صحابه، بصفة عامة وهذا بعد أن يفسر الآيات بآيات قرآنية أخرى إن وجدت، وطبع هذا التفسير مع معالم التفسير اللغوي، ثم طبع منفلا [18]

كيف قسم كتابه:

لقد أفرد ابن كثير كتابه به بمقدمة هامة، وقصيرة بالنسبة إلى مقدمة بن جرير فبعد أن حمد الله وأثنى عليه، تكلم عن وجوب التفسير وضررته، ثم ذكر أحسن طرق التفسير عنده، وبعده قسم الإسرائيليات إلى ثلاثة أنواع، مبينا النوع الذي يستطيع لمفسر اعتماده في تفسيره، وبين بعده م أنزل من السور، في المدينة، ثم عدد لآيات، ومعنى كلمة "سورة"، واستشهد على ذلك بالشعر، وكذا فعل في كلمة

"آية"، ولماذا سميت بهذا الاسم، وأخيرا ذكر فصلا فيه آراء العلماء في عربية القرآن كالقرطبي وابن جرير.

منهج الطبري في تفسيره:

إن الناظر في تفسير لطبري بصفة متنية، أول ما يلاحظ أنه إذا أراد أن يفسر آية من القرآن يقول القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا"ثم يشرع في شرحها، متبعا في ذلك الخطوات التالية:

1 ــ التفسير بالمأثور: نجده يدعم م يذهب إليه من معنى لآية، بم يرويه بسنده عن الرسول ﷺ أو الصحابة أو التابعين من التفسير لمأثور عنهم في هذه الآية.

وهو يعتني في كل ذلك بما يلي:

أ ــ الإسناد الدقيق في سلاسل الرواة، فيسجل كل الروايت بسندها، التي قد تختلف تفصيلا إيجازا.

"فهو يتحدى الدقة والمانة في ذكر السند (أسماء الرواة)؛ لأنه اتصل بكثير من العلماء وسمع منهم، وكن إذا سمع هو وغيره قال: حدثنا، وإذ سمع وحده قال: حدثني، وإذ نسي واحد من سلسلة الرواية صرح بنسيانه[19]"، غير أنه قد يسوق أخبارا بأسانيد غير صحيحة، ثم لا ينبه على عدم صحتها، فهو غالب لا يتعقب الأسانيد بتصحيح أو تضعيف، لأنه يرى ن من سند فقد حملك البحث عن رجل السند، ومعرفة مبلغهم من العدلة والجرح، فخرج بذلك عن العهدة، ومع ذلك فإنه وقف من لسند أحيانا موقف الناقد البصير[20].

وذلك عند خلاف المأثور: يقسم الآره، ويضع تحت كل رأي مروياته، ثم يعقب عليها بالنقد.

ب ـ النقد: هذا المقياس الذي يوجهه إلى متن الرواية، وكذا سندها، فيبدأ نقده بالتوقف عند الروايات التي أثرت عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أي الأحاديث

النبوية، ناظرا إليها بنظرة المحدثين، ومستخدما في ذلك مقاييس الجرح والتعديل في روتها، ثم مقدما منها ما صحت نسبتها إلى الرسول ﷺ.

وأما الروايات النقلية لغير الرسول، فيعرض للآراء المختلفة في التفسير، مع ذكر أصحاب تلك الروايات ثم يناقشها، خاتما ذلك كله بما يراه أولى بالترجيح، وذكرا مبررات ترجيحية لرأي منها، وقد يردها كلها، وينص على رأيه الخاص.

2 - التفسير اللغوي: يعتمد الطبري على اللغة؛ نظرا لثقافته اللغوية الواسعة، فيبين لمعنى لأصلي للفظ، والمعنى لمنقول إليه، والعلاقة بين المعنيين، ويفضل معنى لكلمة على معنى اخر تحتمله، مستعينا في ذلك كله: أ ـ بما هو معروف من كلام العرب:(من شعر ونثر) فيستشهد بالشعر بشكل واسع، وأقول العرب في الجاهلية، وفي الإسلام، نورد مثلا لذلك في تفسيره لقوله تعالى: "قل تجعلا لله نداد..."[21].

يقول: "قال أبو جعفر: والانداد جمع ند، والند: العدل المثل كم قل حسان بن ثابت: تهجوه ولست له بند فشركما نحير كما الفداء

ويعني بقوله: ولست له بمثل، ولا عدل، وكل شيء كن نظيرا للشيء وشبيها فهو له ند[22].

هو تارة يذكر اسم لشعر، وأخرى يغفله، مكتفي بالشعر، وهو بهذه الطريقة يكون متبعا لما ثاره ابن عباس، والفرء، أبو عبيدة والزجاج، في استخدامهم التفسير اللغوي[23].

وما يتسم به أنه: يخذ بظهر دلالات للفاظ للغوية، فيؤثر التفسير بالظاهر على التأويل بلباطن، ويحتكم إلى الغلب لمعروف في ستعمل العرب للفظة، ما دام ليس هناك حجة تصرف لمعنى القريب والشهر، إلى المعنى البعيد، والحجة هي الكتاب أو لخبر عن الرسل صلى الله عليه وسلم أو إجماع أهل التأويل[24].

كما اهتم الطبري بالمذاهب النحوية: فهو يعرضها أولا كمذهب البصريين مثلا ومذهب الكوفيين إذا دعت الحاجة إليه، ثم يختار منها ما يتفق مع الطريقة الملوفة للعرب في التعبير[25].

ملاحظة:

وإذ كن للطبري تفسيرات صحيحان، حدهم لأهل التفسير، والآخر لأهل للغة، فيترجح لديه رأي أهل التفسير؛ لأنه مادامت هناك رواية نقلية في التفسير، فلا مجال للتفسير اللغوي حينئذ.

3. اجتنابه التفسير بالرأي:

ولتزم الطبري هذا لسلوب في كتابه، فكان يرفض من آراء المفسرين ما يعتمد فيه المفسر على رأيه، ويخاصم بشدة تلك الآراء التي لا تستند على العلم الرجع إلى الصحابة والتابعين، بل تعتمد على مجرد الرأي أو محض اللغة[26]، لذلك نجده في طيت كتابه، يناقش أبوعبيدة، ويرد على ما يروى عن مجاهد، أو الضحاك أو غيرهما ممن يروون عن ابن عباس، ولأن الطبري ينكر على من يفسر بمجرد الرأي؛ فقد عقد فصل في مقدمة كتابه، ذكر فيه أخبارا عن لرسول صلى الله عليه وسلم، تنهى عن القول في التفسير بالرأي، ومن هنا رد على تلك الفرق لتي كانت تلون المعنى القرآني وفقا للهوى وللمعتقدات الباطلة، كالمعتزلة التي لجأت إلى التأويل العقلي نجادت عن طريق أهل السنة والسلف[27].

4. يكثر من الإسرائيليات:

أما في تفسير القصص فإنه يورد روايات يرويها بسنده إلى كعب الحبار ووهب بن منبه، وابن جريج والسدي وغيرهم كثيرا ما ينقل من محمد بن إسماعيل مم رواه عن مسلمة النصاري؛ مثلا في تفسير للاية 94 من سورة الكيف قالوا يا ذا القرنين إن ياجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا"، فذكر الروية بسندها قال: حدثنا سلمة قال: حدثنا محمد بن

إسحاق قال: حدثن بعض من يسوق أحاديث الأعاجم من أهل لكتاب ممن قد أسلم مما توارثوا من علم ذي القرنين أن ذا القرنين كان رجلا من أهل مصدر اسمه مزربا ابن مرد به اليوناني من لوديوذن بن يافث بن نوح...إلخ[28] فالطبري حين يذكر هذه الروايات، غالبا ما يذكرها بسنده في النقل، وقد يعقب على بعض الروايات، ولكنه يتساهل في بعضها، هذا ما لاحظناه، فلعل ذلك راجع إلى أنه يرى في ذكر السند مع كل رواية، ما يبرئ ذمته، ويلقي بالتبعة على المنقول عنه، فيكون بذلك خارج من العهدة، وعلى من بعده ن ينظر في السند وينقد الروايات، لذلك فتفسيره لا يزل محتاجا إلى النقد الفاحص الشامل[29].

ونحن نلاحظ أن ابن كثير ــ بما انه ينقل عن ابن جرير ــ

قد قام بدور هام في التنبيه على بعض الإسرائيليات التي جاءت في تفسير الطبري، خاصة وأن ابن كثير من علماء الحديث، كما علق على بعض لرويات التي أوردها لطبري، فضعفها أو شك فيها.

5 ـ **اهتمامه بالإجماع**: يجعل الطبري من إجماع الأمة، دليلا على صحة ما يذهب إليه من تفسير، إذا لم يتعين المراد من النص[30].

وذكر الضاوي الجويني في كتبه مناهج في التفسير "أن أساس الإجماع لدى الطبري، هو ما ينقله من روايات الرسول والصحابة والتابعين في التفسير، وكذا ما أجمع عليه أهل التفسير في تفسيرهم للآية، فيضم الطبري كل ما قيل في الآية من هذه التفاسير ويسميه إجماعا وحجة ولا يبيح للرأي اللغوي الدخول فيها[31].

6 ـ **اعتناؤه بذكر القراءات**: لصلته الوثقى بالمعنى، فيعرض وجوه القراءات، وينزلها على المعاني المختلفة، ثم يختار ويرجح منها ما ارتضاه، لأنه كان عالما بالقراءات ومؤلفا فيها، ذاكرا مبرر ترجيحه، وهو أنه لا يعتمد منها إلا ما عليه قراء الأمصار المعول عليهم في الاحتجاج[32].

7. **معالجته للقضايا الفقهية**: نجد في تفسيره أثرا واضحا، للقضايا الفقهية، ذلك أن الطبري، كما علمنا سابقا به كتاب "اختلاف الفقهاء"، فهو فقيه دارس للمذاهب كلها، بل مجتهد صاحب مذهب اختاره لنفسه، فمن البداهة أن يعرض للآراء الفقهية، ويناقشها في مناسباتها من آيات الأحكام.

"فيعالج أقوال العلماء ومذاهبهم، وينتهي من مناقشة كل منها إلى ما يستوصبه من رأي يختاره لنفسه، يرجحه بالأدلة العلمية القيمة[33].

8. **خوضه في مسائل الكلام**:

نلاحظ في تفسير ابن جرير، أنه تعرض لمسائل الكلام، عند كثير من الآيات القرآنية، فتعرض لآراء المتكلمين، وكان يسميهم أهل الجدل فناقشها، كما رد على آراء كثير من المذاهب المنحرفة، التي خالفت تعاليم أهل السنة، كالخوارج والقدرية والمعتزلة، "ولكن الطبري لا يوغل في النقاش الكلامي فيما يتصل بتفسير آيات أفعال الله وصفاته، فهو يشارك في ذلك الجدل الكلامي لكن بحرص شديد حفاظا على مذهبه السلفي[34].

ـ بعد أن أنهينا منهج ابن جرير في التفسير، فما نلمحه ونلاحظه، من تفسيره، هو الإدلاء برأيه، بعد عرض الآراء ومناقشتها، فابن جرير حين يرفض رأيا أو تفسيرا معينا، يردف ذلك الرفض بالتعليل المنطقي، وحين يرجح ويختار من التفاسير، يأتيك بالدليل على ترجيحه، ويأتيك بالبرهان والحجة القاطعة على ما انتهى إليه، لذا أنتج لنا تفسيرا فريدا من نوعه، امتزج فيه النظر بالأثر والدراية بالرواية، فكان مرجعا منها عند العلماء، من مراجع التفسير بالرواية، بما جمع فيه من الروايات الأثرية المتكاثرة، وبالدراية، بما فيه من ترجيحات مختلفة، تقوم على نظرات أدبية ولغوية وعلمية، فجعله ذلك، مرجعا لا يستغني عنه أحد على مر العصور.

منهج ابن كثير في تفسيره:

يلاحظ القارئ بعجالة، لتفسير ابن كثير، أنه يعتمد على الأسلوب السهل، الموجز، ويفتتح قوله الخاص بـــ "قلت"، وينهي كلامه بـــ "والله أعلم"، إذا جاء بحديث آخر في نفس الموضوع يشير إلى ذلك ـــ أما المتأمل في تفسيره يستنتج الآتي:

1 ـــ يفسر القرآن بالقرآن: حيث يسرد عدة آيات من نفس معنى الآية التي هو بصدد شرحها، هذا ملاحظ في معظم تفسيره.

2 ـــ يذكر عدة أحاديث مفسرة للآية، بأسانيدها، ويقوم بتخريجها، ويعدل ويجرح رواتها خاصة وأنه يعد من المحدثين.

3 ـــ يذكر أقوال الصحابة، والتابعين، والسلف، ويبين الصحيح منها، أو الأصح والمردود منها.

4 ـــ يستعين بعلم اللغة، والقراءات لبيان المراد من الآية، ويعطي المعنى الاصطلاحي للفظ إذا وجد[35].

5 ـــ يتعرض لآراء الفقهاء في آيات الأحكام، ويأتي بدليل كل منهم، وأحيانا يرجح دون إعطاء رأيه الخاص[36].

6 ـــ يبين مناسبة الآية مع التي قبلها، يذكر سبب النزول.

7 ـــ وكثيرا ما نجد ابن كثير ينقل من تفسير ابن جرير، وابن أبي حاتم وغيرهم ممن تقدمه[37].

8 ـــ ومما يمتاز به ابن كثير، أنه ينبه إلى ما في التفسير بالمأثور، من منكرات الإسرائيليات، ويحذر منها على وجه الإجمال تارة، وعلى وجه التعيين، وبيان منكراتها تارة أخرى، مثل تفسيره قوله تعالى في الآية67، وما بعدها من سورة البقرة[38].

9 ـــ يذكر آراء الفرق الإسلامية غير رأي أهل السنة، ويرد عليها.

مقارنة بين منهج الطبري وابن كثير:

نستخلص من هذا البحث، أن كلا من تفسير ابن جرير الطبري، وتفسير ابن كثير اسماعيل ابن عمر، يصنف ضمن التفسير بالرأي والمأثور، ومنهجيما المتبع في تفسيريهما، متقارب جدا، وهو المنهج التحليلي، إلا أن ابن كثير، قد أوجز واختصر، والطبري قد أسهب وأطنب، وذلك ملاحظ في المساحة التي أخذها كل من الكتابين، فتفسير الطبري، يقع في ثلاثين جزء من الحجم الكبير، بينما تفسير ابن كثير، قد أخذ حيزا أضيق، فهو يقع في أربعة أجزاء من الحجم الكبير، وفي طبعة أخرى سبعة أجزاء، من النوع المتوسط، ويقول عنه العلماء، أنه يعتبر الكتاب الثاني ــ بعد كتاب ابن جرير ــ الذي اعتنى فيه صاحبه، بالرواية من مفسري السلف، ففسر فيه كلام الله تعالىبأحاديث، وآثار مسندة إلى أصحابها، كما جرح عدل، ونجد أن ابن كثير ينقل عن ابن جرير، ذلك أن هذا الأخير، كان ممن سبقه عصرا.

هذا ما جعل المقارنة بين منهجيهما صعبة إلى حد ما، فالفروق بينهما لا تكاد تعد، لعل ما يختلف فيه ابن كثير عن ابن جرير، هو اعتبار الأول أكثر سرد للآيات المتناسبة في المعنى الواحد، فهو شديد العناية بتفسير القرآن بالقرآن، بينما الطبري لم يسلك هذا المسلك إلا في بعض الأحيان، حين يربط السياق، ويعود بمراجع الكلام، إلى معاقدها الواردة في مواضع أخرى، من القرآن الكريم. كم أن ابن كثير يختصر أحيانا في الأسانيد الطويلة، فلا ينقلها كاملة، بل يقتصر على راو حد أو اثنين، واستنتجنا أن ذلك يرجع إلى صحة الحديث، أو شهرته، وخاصة إذا كان من الكتب الصحاح في الحديث، كصحيح البخاري وصحيح مسلم، ينقل منها قائلا: "في الصحيحين"، ثم يذكر الحديث، أو يقول: "في الحديث الصحيح"، إذا نقل الحديث بسنده، فإنه ينظر فيه فيجرح، ويعدل الرواة ويرجح بعض الأقوال، ويضعف بعضها ويصحح البعض الآخر وهذا راجع فيما استخلصه إلى ما كان

عليه من المعرفة بمتون الحديث، وأحوال الرجال، بينما نجد الطبري، في الأغلب الأعم، لا يتعقب الأسانيد بتصحيح، ولا تضعيف، لأنه كان يرى كما هو مقرر في أصول الحديث ــ وهذا ما علله له الباحثون ــ "أن من أسند لك، فقد حملك البحث عن الرجال والسند، ومعرفة مبلغهم من العدالة والجرح، فهو بعمله هذا قد خرج من العهدة، ومع ذلك فإنه يقف من السند أحيانا، موقف الناقد البصير، فيعدل ويجرح، ويرد الرواية التي لا يثق في صحتها، يصرح برأيه بما يناسبها39". فنحن نرى أن الطبري قام بجهد عظيم، لأنه نقل لنا ذلك التراث الضخم من التفسير، ومروياته ذاكرا الأسانيد، فعلى من بعده أن يقوم بالفحص والتمحيص، بناء على القواعد التي وضعها النقاد للتصحيح والتضعيف، ويتعرض الطبري لإعراب الكلمات، يذكر مذاهب النحويين المختلفة، بينما ابن كثير قليلا ما يتعرض لها.

كما نجد أن ابن كثير في آيات الأحكام، يذكر آراء الأئمة الربعة ويرجع منها رأيا، أما الطبري فيذكر آراء فقهاء الصحابة والتابعين دون التعرض للمذاهب الأربعة بعينها، وفي الغالب يختار رأيا جديدا لنفسه مع الدليل ويعلل الرأي الذي اختار، بالإجماع الذي يعتبر ميزة خاصة للطبري، بينما ابن كثير ليست له هذه الميزة

يتعرض الطبري بكثرة للقراءات في لفظة معينة، بينما لا يذكرها ابن كثير إلا نادرا.

تفسير الآية الثامنة والعشرين من آية آل عمران:

"لا يتخذ المؤمنون الكافرون أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء، إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير"

طريقة تفسير الطبري لهذه الآية:

فسر قوله تعالى: "لا يتخذ المؤمنون... تقاة"، الآية بادئا بـــ"القول في قوله الآية" فقال: "وهذا نهي من الله عز وجل المؤمنين، أن يتخذوا الكفار أعوانا وأنصارا، وظهورا. ثم تعرض لناحية الإعراب فقال: "لذلك كسر يتخذ في موضع

جزم بالنهي، ولكنه كسر الذال منه للساكن الذي لقيه، وهي ساكنة"، ثم أكمل التفسير بقوله: "معنى ذلك لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهرا، وأنصارا، تـوالوا منهم على دينهم، وتظاهروا منهم على المسلمين من دون المؤمنين وتدلونهم على عوراتهم، فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء يعني بذلك فقد برئ من الله وبرئ الله منه، بارتداده عن دينه، دخوله في الكفر"، ثم فسر قوله تعالى: "إلا أن تتقوا منهم تقاة"، إلا أن تكونوا في سلطانهم، فتخافوا على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتظمروا لهم العداوة، ولا تشايعونهم على ما هم عليه من الكفر، تعينونهم على مسلم بفعل"، ثم ذكر سبب النزول، عن ابن عباس وقوى ما جاء عن مجاهد بطريق آخر حيث قال: حدثني محمد بن عمرو قال حدثنا أبو عاصم عن عيسى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله "لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين إلا مصانعة في الدنيا مخالقة،. حدثني المثنى قال: حدثنا أبو حذيفة قال: حدثنا شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مثله وبعد أن أورد معنى المولاة أتبعها بتفسير "تقاة": "والتقية بذكر الآثار رويت عن الصحابة، والتابعين، كأكرمة ومجاهد، وأبو العالية، والضحاك، وابن عباس"، وبعدها ذكر معنى آخر للآية "إلا أن تتقوا منهم تقاة"، والتقية بذكر آثار رويت عن الصحابة والتابعين كعكرمة وأبو العالية والضحاك، وابن عباس، وبعدها ذكر معنى آخر للآية " إلا أن تتقوا منهم تقاة" عن قتادة، ثم رد هذا الوجه، رغم أن الآية تحتمله كما قال، معللا ذلك أن ذلك الوجه انصرف عن ما يدل عليه الأغلب الظاهر من معروف كلام العرب المستعمل فيهم وبعدها ذكر اختلاف القراء في قراءة "إلا أن تتقوا منهم تقاة"، فأورد قراءتين، ورجح قراءة "تقاة"، على قراءة "تقية"، لأنها مما أجمع عليه قراء الأنصار، المعتمدون لديه، ذلك للنقل المستفيض فيها وأخيرا فسر قوله تعالى: "ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير"40.

استنتاجات:

1 ــ ابتدأ تفسيره بـــ "القول في تأويل قوله".

2 ــ تعرض لناحية الإعراب في كلمة "يتخذ".

3 ــ ذكر الروايات بسندها، ومتنها، ذكر طريقا آخر يقوى رواية المجاهد.

4 ــ بدأ الحديث بحدثنا، أو حدثني، مما يشير لتحريه الدقة في السند.

5 ــ ذكر معنى آخر لتفسير "إلا أن تتقوا منهم تقاة" ورده، ذاكرا العلة في ذلك مما يؤيد ما ذكرت سابقا بأنه يرجح الأقوال، يرد بعضها بالدليل.

6 ــ ذكر القراءات المختلفة في لفظة "تقاة"، ورجح الأصح منها، بدليل ويتجلى هذا في كل أجزاء تفسيره.

طريقة تفسير ابن كثير للآية الثامنة والعشرين من آل عمران:

بدأ بتفسير الآية جزء جزء، ففسر قوله تعالى "لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين"، ثم فسر قوله تعالى "ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء"، فقال: "أي من يرتكب نهي الله في هذا فقد برئ من الله"، ذكر جملة من الآيات، تفسر هذه الآية، وتؤيد ما ذهب إليه منها: "والذين كفروا أولياء بعض"، "إلا تفعلوه، تكن فتنة في الأرض وفساد كبير"، ثم فسر قوله تعالى: "إلا أن تتقوا منهم تقاة"، "أي إلا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم فله أن يتقيهم، بظاهره لا بباطنه ونيته"، وأيد ما ذهب إليه في تفسيره، بحديث البخاري، عن أبي الدرداء، وكذا الثوري عن ابن عباس، وقواه بطريق آخر عن العوفي، دون ذكر السند كاملا. ثم ذكر أسماء من ذهبوا إلى رأي ابن عباس، وهم أبو العالية، وأبو الشعثاء، والضحاك، والربيع ابن أنس، بدون ذكر السند، ولا المتن كذلك، ثم يؤيد ما ذهب إليه هؤلاء بآية قرآنية، وهي "من كفر بالله من بعد إيمانه، إلا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان"، وبعد فسر قوله تعالى: "ويحذركم الله نفسه"، فقال: "أي يحذركم نقمته في مخالفته وسطوته، وعذابه، لمن والى عداءه وعادى أولياءه. ثم قوله

تعالى: "وإلى الله المصير"، أي "إليه المرجع والمنقلب، وليجازي كل عامل بعمله"، وأيد تفسير لها بحديث عن ابن أبي حاتم41.

استنتاجات:

1 ــ أيد ما ذهب إليه في التفسير، بآيات قرآنية هذا من: من تفسير القرآن بالقرآن.

2 ــ أيد ما ذهب إليه، بأحاديث مأثورة عن الصحابة، والتابعين، ومؤيدا في نفس الوقت من ذهبوا إليه في التفسير بآية قرآنية.

3 ــ ذكر الأخبار دون سند، ونعلل ذلك باحتمالين: إما لاشتهار هذه الأحاديث بأنها صحيحة عند العلماء، أوعند طلاب العلم، وإما أنه ذكر الأحاديث بأسانيدها في موضع آخر فلم يرد التكرار، ذلك أنه قد تواترعلم ابن كثير بالحديث وأسسه حتى لقب الحافظ بن كثير.

4 ــ نقل عن مفسر سبقه هو ابن أبي حاتم.

5 ــ وجاء بطريق يقوي رواية الثوري عن ابن عباس.

مقارنة بين طريقة كل من الطبري وابن كثير في تفسير هذه الآية:

أوجه الشبه:

1 ــ ذكر كل منهما حديث بسنده، ثم قوى كل منهما السند الذي جاء به بسند آخر، فابن جرير ذكر سندا آخر يقوي حديث مجاهد، وذكر ابن كثير حديث ابن عباس وقواه بطريق آخر.

2 ــ هما متفقان في معنى الآية.

3 ــ روى ابن جرير حديث ابن عباس، والضحاك، وأبو العالية، والربيع، والحسن، وأشار ابن كثير إليهم كذلك.

أوجه الاختلاف:

1 ــ تعرض ابن جرير لناحية الإعراب في كلمة "يتخذ"، بينما ابن كثير لم يذكرها.

2 ــ اعتمد ابن جرير في بيان مراد الله تعالى من الآية، على أقوال الصحابة، بينما ابن كثير اعتمد أكثر على الآيات القرآنية لتوضيح المراد.

3 ــ ذكر ابن جرير أقوال الصحابة بالسند، والمتن، غير أن ابن كثير لم يذكر السند أصلا في تفسير هذه الآية وذلك راجع في رأينا أن بن جرير يعتبر الخلاف اليسير في المتن، وابن كثير لا يعتبره بذلك ذكر بعض المتون دون بعض.

4 ــ تعرض ابن جرير لمعنى آخر مخالف لما ذهب إليه في "إلا أن تتقوا منه تقاة"، واكتفى ابن كثير بالمعنى الذي يوافق ما ذهب إليه.

5 ــ تعرض ابن جرير للقراءات المختلفة في كلمة "تقاة"، ولم يذكرها ابن كثير.

6 ــ جزء ابن جرير الآية إلى جزئين، وفسرها ابن كثير، مجزءا إياها إلى خمسة أجزاء.

7 ــ يفتتح ابن جرير السند بحدثني، أو حدثنا، لكنه في رأينا قريبا من عهد التابعين، أما ابن كثير فلبعده عن القرون الأولى لم يفتتح السند بذلك.

8 ــ انفرد ابن جرير بالرواية عن مجاهد، وانفرد ابن كثير بالنقل عن البخاري.

الخاتمة:

لقد أخطأ كثير من الباحثين حين قالوا أن ابن جرير هو اول من اتجه إلى ذلك المنهج، في التفسير في المأثور من الأخبار المسندة، مردفا إياها بالنقد ثم الاختيار والترجيح، القائم عن البرهان والدليل معتمدا، في كل ذلك على علوم اللغة العربية، والإعراب ثم ذكر القراءات، مما أدى بهم إلى جعل ابن جرير أول من فسر القرآن شاملا، متماسكا بذلك المنهج الفريد، حتى سار عليه، كل من جاء من بعده لكننا بعد التنقيب والبحث تبين لنا خطأ من قال بذلك، نورد أو ننقل هذا النص الذي اخترناه من كتاب "التفسير والمفسرون"، للذهبي لانه ممن قالوا بذلك ــ وهذا على سبيل المثال لا الحصر، حتى نرد عليه، وعلى من قال بمثل ذلك.

قال الذهبي في كتابه التفسير والمفسرون: " ... هذا ونستطيع أن نقول أن تفسير ابن جرير، هو التفسير الذي له الأولوية بين كتب التفسير، أولوية زمانية، وأولوية من ناحية الفن والصناعة، اما أولويته الزمانية؛ فلأنه أقدم كتاب في التفسير وصل إلينا، وما سبقه من المحاولات التفسيرية، ذهبت بمرور الزمن، لم يصل الينا شيء منها، اللهم إلا ما وصل إلينا منها في ثنايا ذلك الكتاب الخالد، الذي نبحث بصدده، وأما أولويته من ناحية الفن والصناعة: فذلك أمر يرجع إلى ما يمتاز به الكتاب من الطريقة البديعة، التي سلكها في مؤلفه حتى أخرجه للناس كتابا له قيمته ومكانته[42]، ولكننا لا نتفق مع الذهبي لما ذهب إليه لأننا وجدنا في كتاب "دراسات حول القرآن"، لأحمد الطحان، أن كتاب ابن جرير ليست له أولوية زمانية، لا أولوية من ناحية الفن والصناعة، وقد نبه ابن عاشور لذلك فقال في كتابه "التفسير ورجاله": "إن أول سابق إلى هذ المنهج، هو "يحي بن سلام"، تميمي، البصري، الإفريقي، توفي سنة مائتي "200هـ"، ألف تفسيره بالقيروان في ثلاثة مجلدات ضخمة، وقد بناه على إيراد الأخبار مسندة، ثم تعقبها بالنقد والإختيار، وبعد أن نورد الأخبار المروية، مفتتحا اسنادها بقوله: "حدثنا يأتي بحكمة الاختياري مفتتحا بقوله: "قال يحي"، ويجعل مبنى اختياره على المعنى اللغوي، والتخريج الإعرابي، ثم يتدرج في اختيار المعنى إلى اختيار القراءة التي تتفق مع المعنى، من ثم كان خطأ شائعا وقع فيه كثير من الدارسين حديثا، أن ينسبوا هذا المنهج لابن جرير ويضربوا المثل فيه بكتابه جامع البيان عن تأويل القرآن، متجاهلين ابن سلام الذي يعد بحق مؤسس المنهج الأثري في التفسير، في القرن الثاني، وما ابن جرير إلا ربيب ذلك المنهج وثمرة ذلك الغراس[43]".

الهوامش:

[1]التفسير والمفسرون 205/1
[2]منهج في التفسير ص 305
[3]نفس المرجع السابق ونفس الصفحة.
[4]طبقات المفسرين للسيوطي ص 3
[5]التفسير والمفسرون 206/1.
[6]نفس المرجع السبق ص 205.
[7]مناهج في التفسير ص 317.
[8]نفس المرجع السابق والصفحة انظر التفسير والمفسرون للذهبي 1
[9]الإتقان في علوم القرآن للسيوطي 190/2
[10]مجموع فتاوى ابن تيمية 192/2.
[11]معجم المفسرين ص 93/92
[12]التفسير والمفسرون ص 242.
[13]نفس المرجع ص 242.
[14]نفس المرجع ص 243.
[15]نفس المرجع
[16]نفس لمرجع
[17]مختارات من فضائل القرآن لابن كثير " مقدمة ص 3 "
[18]التفسير والمفسرون ص 244.
[19]الطبري للدكتور الخوني 27/1 من سلسلة اعلام العرب رقم 13، نقلا عن جامع البيان عن تاويل القرآن " من الترجمة التي كتبها في أوله محي الدين خليل.
[20]أنظر تاريخ القرآن والتفسير، د/ عبد الله محمد شحاتةص 174، مناهج في التفسير الجويني ص 366
[21]الآية 22 من سورة البقرة
[22]تفسير بن جرير ج1، ص 125
[23]منهج في التفسير ص 402
[24]أنظر للمثال على ماقلناه تفسير الطبري ج4- ص149، ومناهج في التفسير ص 388.
[25]أنظر مناهج في التفسير ص 402، والتفسير المفسرون ص 218، وانظر تفسير الطبري ج13/ص 131.
[26]للمثال على ذلك أنظر تفسيره للآية 49، من سورة يوسف.
[27]أنظر الترجمة التي كتبها محي الدين خليل في لجزء الأول من جمع البيان عن تأويل القرآن دار الفكر1984، والتفسير والمفسرون ج1/ص 210-211.
[28]تفسير بن جرير ج16،ص 14.
[29]تفسير المفسرون ج1 ،ص 215.
[30]أنظر تفسيره للآية 230، البقرة
[31]مناهج في التفسير ص 397.
[32]أنظر التفسير والمفسرون ج1، ص214 ومناهج في التفسير ص 363/362.
[33]التفسير والمفسرون ج1، ص219، وأنظر لترجمة التي كتبها خليل محي لدين في لجزء الأل من جامع البيان عن تأويل القرآن للطبري
[34]أنظر التفسير والمفسرون، ج1،ص222، مناهج في التفسير ص 382/371، وللمثل على ذلك انظر تفسير بن جرير للآية 8 من سورة النحل.
[35]للمثل على ذلك أنظر تفسيره ج1/ ص 46، دار الأندلس
[36]للمثال على ذلك نظر تفسير بن كثير ج1، ص 369.
[37]التفسير والمفسرون ج1، ص 245.
[38]نفس المرجع السابق ونفس الصفحة.

[39]التفسير والمفسرون ج1، ص 212.
[40]انظر تفسير الطبري ص 152، 153، 154.
[41]انظر تفسير بن كثير ج2، ص 18.
[42]التفسير والمفسرون ص 209.
[43]دراسات حول القرآن1/165، نقلا عن التفسير ورجاله لبن عاشور من ص 28إلى 30.